العلوم الحيوية و اللغوية: آفاق ومنهجيات

الدكتور أنور محمد الخطيب- عضو المجمع*

المجمل

تمهيد:

أولاً: صقل المرآة اللغوية:

ثانيًا:القوة الفكرية الإنسانية:

ثالثًا: اتساع آفاق المعرفة الإنسانية:

رابعًا: مكتشفات التجارب والقياسات الإنسانية:

خامسًا: تطابق مذاهب العلوم الحيوية واللغوية:

سادسًا: الانطلاقة العلمية التجريبية:

سابعًا: بيولوجية العلوم اللغوية:

ثامنًا: هدف دراسة اللسانيات:

تاسعًا: السياسة العلمية اللغوية الحديثة:

عاشرًا: التعريف الحديث للحياة واللغة:

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بتاريخ ٣ ذي القعدة ١٤٣٠هـ - الموافق ٢١ تشرين أول - ٢٠٠٩م.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرحمن علم القرآن... خلق الإنسان... علمه البيان...)

تمهيد: لقد ابتليتُ بمرض العلم والعلوم... وعشت سنن الحياة ونظمها... وتمتعت بجمال اللغو واللغة وتذوقت البلاغة... كم أحب اللغة!... وكم أنا عاجز عن السيطرة عليها... إنها بسيطةٌ ككل أنثى!... وإنها معقدة... هي كالطبيعة والحياة لا يمكنك كشف أسرارها إلا إذا عشت في أحضانها... لو أني عرفت الحب خطيرًا ما أحببت... ولو أني عرفت البحر عميقًا ما أبحرت... ولو أني عرفت خاتمتي ما كنت بدأت!...

ما كان لي خيار العمل في مجمع اللغة العربية... ولكن شكرت لرجاله حسن ظنهم... وجميل اعتقادهم... وأقول لهم ما قاله سلفي شاعر دمشق الكبير شفيق جبري رحمه الله... (لقد فصَّلوا لي بردًا ضافي الحواشي... سابغ الأذيال... وتقدموا إلي في لُبسه... فأدركتني الحيرةُ في أمري...فإما أَن ألبِسَ هذا البرد فأعْثُرَ فيه... وإما أن أخلع فأكْفُرَ نعمة المجمع عليّ... ولكني سألبَسُه !... فإن عَثَرْتُ فيه فلست بأول رجلٍ زلت به قدمه... وما هذا الرداء الذي سأرتديه إلا مِطْرَفَ اللغة الذي نسجته الأيام... وبالغت في تطريزه الدهور...فازداد رونقًا على تعاقب السنين... وتضاعفت بهجتُه... فانبسطت جوانبه فوسع أممًا ذهبت بين سمع الأرض وبصرها... لقد تضمنت اللغة

عبقرية العرب... واشتملت على خشونة بداوتهم... ورقة حضارتهم... وتمثلت فيها خواطر العرب وعلومهم ومنظومُهم ومنثورُهم في قديم الدهر وحديثه... فهي المرآة التي إذا نظرت فيها أدركت فضل العرب وعلمت بمبالغ عقولهم ومقادير أحلامهم... إلا أنه لا بدَّ لهذه المرآة من صقلٍ من حين إلى آخر... لأنَّ عقول الناس قد امتدت آفاقُها... فاهتدت إلى ما لم يهتد إليه الأولون... فإذا أحببنا أن يكون لمجمعنا فضل، . فلنجتهد في صقل مرآة اللغة... حتى تتراءى فيها موضوعات هذا العصر بمجامعها).

أولاً: صقل المرآة اللغوية: إن صقل المرآة اللغوية لا يمكن أن يجري بالعودة إلى التراث المعماري والأوابد!... فاللغة هي كامل التراثِ الحي في قديمه وحديثه... هي مستودع القيم... ووعاء الروح... وذوب العبقرية... حروفها ثروتنا الأولى... وأوزانها وتفعيلاتها انعكاساتٌ لأنماط سلوكنا... وفي منثُورها ومنظُومها روحُ أمتنا العربية كلِها من محيطها إلى خليجها... فيها أفكارُنا وأفكارُ أجدادنا... وأفراحُنا وأفراحُهم... وأعمالنا وأعمالهم... وآلامنا وآلامُهم... ففي الفصيح القديم صفاء البادية وبساطة الخيمة وقوة الشكيمة والعزيمة... وفي العاميِّ الحديث تقطع الأوصال وتفريق الاستعمار... فيها آثار الهواء النقي في صدور أجدادنا والنسيم العليل الذي شمه أسلافنا... وفيها الهواء السخامي الملوَّث الذي نستنشقه اليوم... ليَخْطُر ببالك أن كلَّ كلمة من

كلماتها تقابلها فكرةٌ من الأفكار التي أبدعتها طائفةٌ من الناس لا يُعلم عددهم... وعاطِفَةٌ من العواطف التي لا يُقَدَّرُ مداها... ففي هذه اللغة لحمُ الوطن... والبشر... ودَمُهُما... ورُوحُهُما.

ثانيًا: القوة الفكرية الإنسانية: لقد أخذ هذا الإنسان على نفسه، مذ وجد على سطح هذا الكوكب، التساؤل عن أبسط المواضيع وأعقدها: كيف يحيا؟ وكيف يموت؟ وما هي الحياة؟... وما هو الموت؟... كيف يتعلم وما هو العلم؟... كيف يلغو وكيف يتكلم وما هي اللغة؟... كم من البساطة: العيش والتعلم والتكلم وكم من الإعجاز في كشف قوانين هذه المَقُولات!... (ليس في الفن حقيقة، ... ولا ينبغي أن نفتش عن الحقيقة في الأدب الذي لا يصح موضوعًا له غير الجمال... الحقيقة في العلوم : أناتول فرانس).

إن قوة الإنسان في عقلهِ وعلمهِ ولغتهِ وسلوكِه لا في غريزته وفيزياء جسمه،... فهو مخلوق غير متخصص فيزيائيًا ولا كيميائيًا حتى ولا عضليًا أو عصبيًا: فالخُلْدُ أبرع منه في الحفر،... وكذا الحصانُ في الجري،... والعصفورُ في الطيران،... والسمكة في السباحة،... إلى آخر ما هنالك... إن ما يَلْفِتُ النظر في بنية هذا الإنسان ضَعْفُ جسمه وقُوةُ عقله وقدرته على العيش في أرض يتضور فيها الماعزُ جوعًا،... وفي حرارة يتلظى فيها العظاء ويتجمد فيها الطير... إنه مخلوق عجيب... واسع القدرة على التكيف...والاستئداب بآداب الوسط الذي

يعيش فيه أو يحيط به... إنه من روح الله وعلمه وعقله: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [ص:٧١- ٧٢]... هذا هو الوعد الحق... فلن يساور نفوسنا أي شك في نصرتنا... في صقل مرآة لغتنا حتى تتراءى فيها موضوعات هذا العصر الذي لن يرعبنا بالأربعين ألف فكرة أو كلمة تولد في السنة الواحدة مسلحين بقوله تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام !... و البحر يمده من بعده سبعة أبحر !... ما نَفِدَتْ كلمات الله !... إن الله عزيز حكيم﴾ [لقمان: ٢٧].

ثالثًا: اتساع آفاق المعرفة الإنسانية: لقد اتسعت آفاق المعرفة الإنسانية في العلوم عامة... وفي العلوم الحيوية خاصة التي نهضت بعد كبوة طال أمدُها... فأصبحت رائدة العلوم بعد النصف الثاني من القرن العشرين وإن التقدمَ الذي أحرَزَتْهُ قد أَثَّرَ في العلوم اللغوية... أما مجامعنا... لا بل وشعوبنا ففي غفلة عن هذا الأمر.

لقد اهتدى إنسان هذا العصر إلى ما لم يهتد إليه الأولون... ففي البداية كانت الكلمة... وكان المفتاح بقوله تعالى اقرأ أي تعلم التجريد... وكل ما نقرأ مُجردات واقرأ في كتاب الله المسطور... واقرأ في كتب الكون المنظور... فاكتفى الشرق حاليًا في قراءة الكتاب المسطور، وترك للغرب قراءة الكتاب المنظور فتفجرت ينابيع المعرفة الكونية فتقدم الغربُ... وكبا الشرقُ... بحث الإنسان

عما هو قبله وشغل بالتفكير بمصيره... وبما يأتي بعده !... شغف بالخلود... فوعدهُ الله للمتقين!...

وتمثلت المرحلة الثانية بالدعوة إلى التجريب بقوله عز من قائل: «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق»... إنه قال لنا إنه خلق الإنسان من صلصال كالفخار... وخلق الجان من مارج من نار... ولكنه طالبنا بالنظر والبحث في بداية الخلق فكُشِفَ للإنسانية الغطاء، وأصبح بصرها اليوم حديد

رابعًا: مكتشفات التجارب والقياسات الإنسانية: كشفت الدراسات والقياسات الإنسانية تواريخ مذهلة نبرز ومضات منها: فقبل سبعة ملايين وثلاثة عشر مليار سنة (١٣.٧ مليار سنة) خُلِقَ الكون من الانفجار الأعظم.

وقبل ستة ملايين وأربعة مليارات سنة (٤.٦ مليار سنة) تكونت الأرض.

وقبل خمسة ملايين وأربعة مليار سنة (٤.٥ مليار سنة) تكونت الشمس.

وقبل أربعة ملايين وأربعة مليار (٤.٤ مليار) سنة تكون حساء الرنا RNA.

وقبل سبعة ملايين وثلاثة مليار (٣.٧ مليار) سنة تكون الدنا DNA.

وقبل خمسة ملايين ومليارى (٢.٥ مليار) سنة تكونت بداءة- طلائعية النوى Procaryotae- Archeae .

وقبل مليوني ومليار (١.٢ مليار) سنة تكونت حقيقيات النوى (اوكاريوت) وانفصل عالم النبات عن عالم الحيوان

وقبل خمسين وخمسمئة مليون سنة (٥٥٠ مليون) رسمت طريق العالم الحيواني المعاصر وعلى رأسها الإنسان.

وقبل خمسين ومئتي ٢٥٠ ألف سنة خلق الإنسان الماهر-هومو هابيليس وحجم جمجمتة ٧٥٠ سم٣.

وتلاه قبل خمسين ومئة ١٥٠ ألف سنة خلق الإنسان المنتصب – هومو ايريكتوس – وحجم جمجمتة ١٠٠٠ سم٣.

ثم قبل مئة ألف ١٠٠ ألف سنة خلق الإنسان العارف – هومو سابيانس وحجم جمجمتة ١٤٠٠ سم٣.

﴿هل أتى على الإنسانِ حينٌ من الدَّهر لم يكنْ شيئًا مذكورًا... إنَّا خلقنا الإنسانَ من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا... إنَّا هديناه السبيلَ إمَّا شاكرًا وإمَّا كفورا﴾ [الإنسان:١- ٣].

عمر أبجدية أوغاريت في رأس شمرا، شمال اللاذقية، وبيبلوس (جبيل) في لبنان ٥٠٠٠ سنة ق.م.

وعمر الكتابة المسمارية cuneiform writing المقطعية التي ابتدعها الأكاديون ٤٠٠٠ ق م.

وفي القرن السابع الميلادي بدأ انتشار اللغة العربية حتى القرن الحادي عشر، فسيطرت على العلوم المتقدمة خلال ٤٠٠ سنة في الحقبة الواقعة بين

القرنين الخامس عشر والثامن عشر، فالعربية كانت لغة العلوم من الأندلس حتى حدود الصين...

وفي القرن الثامن عشر بدأت الحضارة الصناعية...

وتبعتها الحضارة التكنولوجية في منتصف القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين... التي يخشى البعض غزوها الاصطلاحي...!

ليَخْطُر ببالك بعد هذا العرض السريع أن تتصور قدرة هذا العقل الأعلى الذي نفخ في هذا الإنسان من روحه... وعلّمه الأسماء كلَّها ثم عرضهم على الملائكة فقالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا... أفكار و أفكار لا يعلم عددها... وعواطف وعواطف لا يعلم مداها... كامنةٌ في هذا القاموس المحيط البحر الذي يخشى العربي اليوم ركوبه،... فليس لديه حتى اليوم معجمٌ علميٌّ أو لغويٌّ أو أدبيٌّ أو تقنيٌّ يضاهي المعاجم الأعجمية... فإذا طلب تعريف الحرية أو التنمية... أو القاعدة...فسَّرتها له المعاجم الأعجمية ولم تحقق طلبه المعاجم العربية من المحيط إلى الخليج!...

الخلاصة المستمدة من المرحلة التجريبية: قبل اللغة لم يكن الإنسان شيئًا مذكورًا... وبدون اللغة لن يكون شيئًا مذكورًا ففي التِّقنيات التي أبدعتها الإنسانية تجسدت حبال الحياة... وسمت إلى العلم... وارتقت إلى الفلسفة وعرجت إلى الدين ﴿إنَّما يخشى اللهَ من عبادِهِ العلماءُ﴾... فالعلم هو الذي

عرَّف الإنسانية مسيرة خلق الكون. وبالعلم تميّز السراء من الضراء،... والصحة من المرض... والسعادة من الشقاء... والتقدم من التخلف... وفي اللغة تكتب صفحات خلود الفكر الإنساني...

وبعد القراءة التجريدية... والتجريب الميداني... كانت المرحلة الثالثة بدعوة الإنسان إلى رؤية الآيات والقوانين والسنن الإلهية بقوله جل وعلا: ﴿سنريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم... ﴾.

فالعلوم الحيوية واللغوية صنوان نابعان من عين واحدة وكلٌّ تقدم في أحدهما يتبعه تقدمٌ في الآخر: فاللغات كجميع المخلوقات تولد وتنمو وتتطور وتتفاعل مع بيئتها فتيةً يافعةً متحولةً من حال إلى حال،... وتقترِض وتُقرِض من محيطها الميت أو الحي... وتتأثر وتؤثر ثم تشيخ وتعجز وتموت. إن المسيرة التكوينية البيولوجية واللغوية بطيئةٌ... عريقةٌ... صابرةٌ... متضافرةٌ... ﴿ألم ترَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة... أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السَّماء تؤتي أُكلَّها كل حينٍ بإذن ربها... ويضربُ اللهُ الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ [إبراهيم: ٢٤ -٢٥].

خامسًا: تطابق مذاهب العلوم الحيوية واللغوية: يذهب علماء البيولوجية في تفسير الحادثات الحيوية ومنها اللسانيات واللغات ثلاثة مذاهب رئيسة:

أ) مذهب الحيوية vitalism أو التَوْقِيفِية التي لا تُعلَّم إلا بالوحي أو بالقوى

الخارقة: وهو تيار فكري مثالي يُرجع التفاعلات الحيوية في الكائنات الحية ومنها اللسانيات واللغات إلى قوة حية توقيفية مصدرها الخالق عز وجلَّ، تطلق على هذه القوة أسماء مختلفة منها: القوة الحيوية vital force والمبدأ الحيوي vital principle وروح الحياة vital spirt ، ومرد تلك الأفكار إلى أفلاطون وأرسطو المؤمنَين بقوة الروح المهيمنة على عالم الأحياء. يعتقد أصحاب هذا المذهب بوجود روحٍ في الكائنات الحية تُمكنها من إجراء التفاعلات الحيوية، وكذلك اللسانيات واللغات عطاء من الخالق. ﴿ويسألونكَ عن الرَّوْح، قلِ الروحُ من أمرِ ربي ، وماأوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] يُراد بذلك أن علم الإنسان عاجزٌ عن فهم المسيرة الصحيحة لطريقة حياة الأجسام.

لقد تحدى أصحاب المذهب الحيوي العلوم الكيميائية وقالوا بعجزها عن تقليد صنع المنتجات الحيوية!... وقد هُزم هذا المذهب شر هزيمة عندما حوَّل في المخبر الكيميائي الألماني فوهلر فروسيانور الأمونيوم المركب المعدني إلى البولة المركب العضوي الخاص بالأحياء...

وقاد باستور في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر حركة المذهب الحيوي مبرهنًا على عدم حدوث التخمر في الأوساط التي لا تحوي خميرة حية... ولكن ادوارد وهنس بوشنر قد تمكنا بوساطة الأنزيمات (وهي مركبات كيميائية حيوية غير حية)، من إجراء التفاعلات الحيوية في المخابر،

وهكذا ذهب الاعتقاد بالمذهب الحيوي إلى غير رجعة. واستُبعدت التوقيفية عن نشوء اللغات، ويرى أهل النظر أن أصل اللغة تواضع واصطلاح.

ب) **مذهب الميكانيكية mechanism** : يعتقد أصحاب هذا المذهب بأن جميع العمليات الطبيعية الحيوية يمكن تفسيرها بوساطة القوانين الفيزيائية التي تدرس القوى المؤثرة في المادة. وكان رينيه ديكارت الفيلسوف الفرنسي ١٥٩٦-١٦٥٠م من ألمع المعتقدين بمذهب الميكانيكية. لقد صور الميكانيكيون عمل الجسم البشري كعمل الآلة: فالساق والذراع يعملان كعمل الرافعة،... والقلب يعمل كمضخة،... والرئة تعمل كمنفاخ،... والمعدة تعمل كالهاون والمدقة... واللغة: أصواتٌ فيزيائيةٌ وضعيةٌ اخترعها رجلٌ ماهر ثم قبلها الناس للتعبير عن رغباتهم (الفيلسوف اليوناني ديموقريطس)

ج) **مذهب الإرجاعية reductionism** : ينادي أصحاب هذا المذهب بالدراسة الفيزيائية-الكيميائية المخبرية لفهم الظواهر المعقدة كالحياة واللغة، ويرجعون دراسة البنى المعقدة داخل العضوية إلى دراسة مكوناتها البسيطة خارج العضوية وداخل المخبر. كما يرون ولادة اللغة نتيجة التطور الحيوي للتفاعلات الفيزيائية الكيميائية عبر مسيرة التكوين العام للإنسان.

تعرض المبدأ الإرجاعي الفيزيائي الكيميائي لأعنف اختبارٍ له في القرن العشرين عندما طُلِب إليه الإجابة كيميائيًا عن الطريقة التي تمكن الأحياء من

توليد كائنات جديدة مشابهة لأصولها أو مطابقة لها في كثير من الصفات!... وبرزت روعة الإجابة في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي في كشف جزيء الحمض الريبي النووي المنزوع الأوكسجين الذي عُرف اختصارا بالدنا DNA وفتح ميدان السباق العلمي لكشف بنية هذا الجزيء العجيب، وطُلب من هذا الجزيء شرح أسرار الوراثة فأجاب عنها بوضوح رائع، وبُهت الذي كفر... وما إن اجتاز المبدأ الكيميائي للوراثة أعنف اختبار له حتى تعرض لاختبار أشد عنفًا عندما طُلب إليه الإجابة عن الآلية الكيميائية الحيوية لعمل الدماغ. كيف يتكلم الإنسان!... كيف يحب ويكره... وكيف ينظم الشعر؟...

ولئن قبلنا اليوم حل المسألة الوراثية، التي ظلت مدة طويلة من معجزات الحياة الغامضة!... فإنه من الصعب علينا القبول اليوم بأن آمالنا وأحلامنا ومشاعرنا ولغتنا مرتبطةٌ كلها بتكوين الخلايا الدماغية وكيميائية عملها لقصر نظرنا وعلمنا!...ولكن الواقع هو هذا الأمر... فاللغة منتَجٌ حيويٌّ يتأثر بالزمن والمكان، والحياة والموت، وبنماذج البيئة، وبالتوزيع الجغرافي للناطقين بها...

سادسًا: الانطلاقة العلمية التجريبية: فالعلم الذي ننعم بمعطياته أقامته القرون مستمدة كل مقوماته من مجموعة القوانين التي تسود الوجود. لقد انطلق بناء العلم من الأمم التي عاشت على ضفاف الأنهار: دجلة والفرات والنيل والسند وسواها... وزانه العقل الإغريقي والعربي بقيادة أبي حيان

التوحيدي وابنِ سينا والفارابي وابنِ رشد... ونماه كوبيرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣) الذي برهن على دوران الأرض على ذاتها وحول الشمس، وكبلر (١٥٧١-١٦٣٠) الذي وضع قوانين الكواكب السيارة التي أوحت بمبدأ الثقالة العامة، وغاليليه (١٥٦٤-١٦٤٢) الذي اكتشف حركة دوران الأرض حول الشمس. ونيوتن... لقد وضع كوبيرنيكوس الديناميت لنسف الكثير من أفكار العصور الوسطى،... وأشعل نيوتن وصحبه الفتيل. ووسع فرنسيس باكون نطاق هذه الرؤية مؤكدًا أن هدف العلوم الوحيد هو تزويد البشر باختراعات وكشف ثروات جديدة تيسر حياتهم. وقد استغرق ترسيخ هذا المفهوم، لكي يعتمده العالم الحديث، زهاء ١٥٠ سنةً... وجاء داروين (١٨٠٩-١٨٨٢) متحدثًا عن نشوء الأنواع وتنازع البقاء وبقاء الأصلح... وتلاه ماركس(١٨١٨-١٨٨٣) مدعيًا اكتشاف قانون التاريخ... وبعده فرويد (١٨٥٦-١٩٣٦) معتمدًا التحليل النفسي... وجاء توينبي ليحصي ثلاثين حضارةً عبر التاريخ دون تحيز لواحدة، قائمةً على نظرية التحدي والتصدي Challenge and Response، متخذًا المجتمع لدراسة التاريخ وليس الأمة... يرى تويمبي أن الحضارة العربية باقيةٌ حيةٌ وسليمةَ الجوهر... ولن يجرفها تيار الحضارة الغربية ولن تتحجر على الرغم من استعمارها والنكبات التي حلت بها؛ لأنها تملك مقومات بقائها ممثلةً بالتوازن بين الفكر والعمل. وهو يرى أن

موت الحضارات ليس حتميًا كما يرى شبنغلر وابن خلدون، مادام أن هنالك مجتمعًا محتفظًا بالتصدي الإبداعي Creative Response وصاغ نظرته للتاريخ قائلاً: إن عجلة التاريخ ليست آلة شيطانية تبتلي الناس بعذاب سرمدي، ولكن هناك إيقاع أساسي يتمثل في التحدي والتصدي والانسحاب والعودة والنكسة والنهضة.

سابعًا: بيولوجية العلوم اللغوية: يرى تشومسكي ومن جرى جريه، بُعد مناهج الدراسات اللغوية عن مناهج الدراسات العلمية... ، وعلى الدراسات اللغوية لكي تصبح علمًا، أن تنهج منهج الدراسات البيولوجية. وإن دراسة اللغات ما زالت قاصرة على المشاهدة والوصف، ولن تصبح علمًا إلا عندما ترتقي إلى التفسير، أي الانتقال من مِمَ تتكون اللغة... إلى لماذا تتكون اللغة من كذا... وكذا... فالفلسفة نظر بلا عمل...والإحصاء وجمع الذخيرة اللغوية عمل بلا نظر... والعلم نظر وعمل. نعم نظر وعمل وتنفيذ. العلم إذن: قراءة وتجريد... وعمل وتجريب... وغوص في المعاني... وارتقاء من المحسوس إلى المجرد... ووضع في الذهن ليصبح أمرًا كليًّا عامًا لا يأتمر بأمر شخص ولا جيل... ولا أمة... ولا أيِّ صنفٍ من البشر... ممثلاً بالقانون الطبيعي النافذ في كل زمان ومكان.

فالبيولوجيا التجريبية (الممثلة بعلم الحياة الجزيئي الذي يمثل فن النفوذ إلى

بنية المكونات المادية البسيطة للطبيعة المعقدة واكتشاف القوى التي تحكمها، والقوانين التي تنظم أجزاءها البسيطة ثم دمجها في النظام الكلي) هي التي تعطينا الإجابة.

فاللغة هي المكون الأول للشخصية، وهي انعكاس اللاشعور الذي يمثل بنية لغوية يُدخلها بعض الأطباء في التحليل النفسي (جاك لاكان ١٩٠١-١٩٨٠) الذي يدعو إلى دراسة اللاشعور كدراسة اللغة في ضوء علم اللسانيات، وهنا التآلف الحي بين العلوم الحيوية البيولوجية، والنفسية البسيكولوجية، والعلوم اللغوية اللسانية لانغوستيك.

ثامنًا: هدف دراسة اللسانيات: إن هدف دراسة إدارة اللسان أو اللغة لينغويستيك linguistic أو اللسانيات كامن في دراسة العقل وطريقة حفظ المعلومات... ودراسة العقل تتطلب تجريد الدماغ... وتجريد الدماغ يمثل أعقد بنيان في هذا الكون ذلك لأن فيه عشرة آلاف مليار (١×١٠^{١٣}) خلية، و (١×١٠^{١٦}) واصلة Connexion ترتبط الواحدة منها بآلاف الأخريات... وفهم العقل سيأتي بعد تحليل بنيان الدماغ... وبعد فهم البنية الوظيفية التنسيقية... وهذا هدفٌ بعيد المنال!... وإلى أن يتم ذلك يستطيع علم إدارة اللسان أو اللغة لينغويستيك أن يدرس نتاج العقل أي اللغة ليكشف شيئًا من كنهها... ويتصور تشومسكي أن ملكة اللغة ، في عقل الإنسان: عبارةٌ عن دارة كهربائية

موحدة (هي هي) في عقل كل إنسان مهما كان قومه، وأن في هذه الدارة قواطع تتخذ في كل لسان أوضاعًا تناسب اللسان الذي يتعلمه الطفل.

كتبت الموسوعة البريطانية عن تشومسكي ما يلي: «لا توجد قضية نظرية في علم إدارة اللسان لينغويستيك اليوم تناقش إلا بالشكل الذي أشار إليه تشومسكي» وقالت عنه جريدة نيويورك تايمز: «لعله أكبر مفكر في هذا الزمان» أما الخصوم فكثيرًا ما نعتوا أفكاره: بالمفلسة والمصيبة... والتافهة...

إن القبول بمبادئ تشومسكي لم يكن من الأمور السهلة وخاصة بالنسبة لأصحاب المذهبين الحيوي والإرجاعي!... فمن دعائم مبادئ تشومسكي تعلم الطفل لسان أمه:

فالطفل ينطق لسان أمه نطقًا سليمًا دون أي جهد... ويتعلم الصحيح والخطأ في لسان أمه... وهو لم يسمع إلا عددًا محدودًا من بحر كلمات لا يحصى عددها!...ويستحيل على أي إنسان أن يتعلم لسانًا أو لغة إذا كان جاهلاً بها كل الجهل عند البدء... وكم من صعوبة يجدها في تعلم لغة أجنبية عند الكبر!...

نستنتج (مع تشومسكي وديكارت) مما سبق: أن ملكة اللسان أو اللغة محفورةٌ في الدماغ تحملها جينات هذه شبيهة بجينات ملكة المشي... فالطفل السوي يتمكن من المشي في حينه ولا يتعدى أثرُ الوسطِ التشجيعَ أو التعويق. والطفل السوي يتمكن من النغو واللغو واللغة واللسان... وسماعُ الكلام هو

الذي يحرر ملكة اللغة ويضبُط بعض خصائصها. وفي هذا يتمثل المنهج العقلي أو الفطري الممثل بالحديث الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة أي (التي تمثل المخزون العقلي)».

وهنا نصطدم بالفلاسفة الاختباريين القائلين: «يمثل العقل، عند الولادة، صفحةً بيضاء تَخُطُ عليها التجربة ما تشاء» وإن السلوك هو الشيء الوحيد الذي تجوز دراسته... وأن السلوك الحيواني كلَّه مبني على تجربته التي تُقوي بالثواب بعض أنواع سلوكه، وتَضْعِفُ البعض الآخر بالعقاب.

ويرى تشومسكي أن على العلم استكشاف مخزون العقل بدراسة ما يصدر عنه متفقًا مع ما أراده كانط في كتابه: «نقد العقل المحض» مطبقًا طرائق العلوم الطبيعية في دراسة العقل. والذي قال إنَّ العقل محكوم بالوراثة.

ومن دعائم مبادئ تشومسكي دراسة لغة الكرِيولو criollo (لغة العبيد أو الموالي الذين أُخرجوا من ديارهم قسرًا بالعنف أو بالفقر، قبل نحو ثلاثمئة سنة، من أصول إفريقية وآسيوية وجزر البحر الكاربي، وجُمعوا في مزارع التبغ والقطن وقصب السكر وسواه، يتكلمون لغاتٍ إفريقيةً وآسيويةً مختلفة، فلا يفهم بعضهم بعضًا، فأوجدوا لسانًا مشتركا يتفاهمون به. فماذا يكون هذا اللسان أو اللغة.)

مَثَّلَ **الجيلُ الأول جيلَ المهجرين**: جيلَ العجمة أو الرَطَانَةِ أو التدجينِ أو

الحرفةِ والمهنة مستعملين كلمات مشوهة من لغة سادتهم!...

الجيل الثاني: جيلُ المُوَلَّدِين: يتكلمون لغة واحدة متفقين في قواعدها دون تشاور، منتشرة في كل المواضع، على بعد الشَقَّة، واختلاف لغات السادة،... وقواعد معتمدة من قبل كل طفلٍ عاديٍّ يتعلم لغة قومه في كل مكان من العالم، فإن تُرك وشأنه فعل ذلك،...وإن ردعه أهله، لاختلاف قواعد لسانهم عن القواعد الفطرية الأصلية، ارتدع بعد لأي.

تاسعًا: السياسة العلمية اللغوية الحديثة: تتمثل السياسة العلمية اللغوية الحديثة بما يلي: الاعتقاد بوجود طبيعةٍ إنسانيةٍ جينيةٍ تُدعى ملكة اللسان أو اللغة، محفورة في العقل ممثلة بالفطرة التي فطر عليها الإنسان. تسير هذه الفطرة في اتجاهين: يرى الاتجاه الأول أن الإنسان أنانيٌّ مجبولٌ على حب الذات، بقيادة جينة الأنانية. ويتمثَلُ الاتجاه الآخر بحب التعاون مع أخيه الإنسان بحكم روابطه الاجتماعية. فإذا وُجد الفرد في جمهرة من الأنانيين نمت فيه النزعة العدوانية غير المؤمنة بالقواعد الاجتماعية والإنسانية ﴿وأنا منا الصالحون... ومنا دون ذلك.. كنا طرائق قددًا﴾ [الجن: ١١]. القددة الجماعة تختلف آراء أفرادها... وإذا وُجد في مجموعة من الغيريين التزم بالقواعد الاجتماعية التي تبني الحضارات!... ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

عاشرًا: تعريف الحياة: كرَّس عشرات ألوف الباحثين جهودهم ووقفوا حياتهم على تعريف الحياة الذي ما زال يتطلب الصياغة... لقد أيقظت أحجية غموض مفهوم الحياة اليوم البحث عنها في الفضاء الكوني،... كما وُجهت الدراسات نحو محاولة تخليق الحياة تجريبيًا في الزجاجيات. وقد ورد تعريف الحياة في اللغة العربية بأشكال عديدة أبرزها:

١- الحياة هي القدرة على النمو كقولنا: كائن حيّ ينمو وكائن ميت متوقف عن النمو...

٢- الحياة هي القدرة على الإحساس ممثلة في قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ [فاطر: ٢٢]. فالأحياء الذي يتحسسون ما يحيط بهم، وما يخطط لهم. والأموات لا يدركون ما يخطط لهم...

٣- الحياة هي القدرة على استعمال العقل ممثلة في قوله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ كانَ مَيْتًا فَأَحْييناه﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقول كثير عزّة:

لقدْ أسمعْتَ لو ناديْت حيًّا ولكـن لا حياةَ لمن تنادي

كم منا من يستعمل عقله في دراسة هذا الكون الفسيح؟

٤- الحياة هي ارتفاع الغمّ والذل كما في قول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميّتٍ إنما الميـت ميّت الأحياء

إن من لا يسعى إلى رفع الذل والغم عن نفسه وعن قومه فهو حي ميت

٥- الحياة هي الحياة الآخرة التي يتوصل إليها بالعلم و العقل كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمَنُوا استجِيبُوا للهِ و للرَّسولِ إذا دعَاكُم لما يُحييكم﴾ [الأنفال٨: ٢٤].

٦- الحياة حياتان: إحداهما الحياة الدنيا و الأخرى هي الحياة الآخرة...

٧- الحياة هي صفةٌ من صفات الله تعالى. فإذا قيل فيه عزّ وجلّ : «هو الحيّ» فمعناه : هو الذي لا ينطبق عليه الموت.

٨- الحياة والحيوان واحد عند أهل اللغة ، و قد قيل الحيوان من يملك الحياة والموتان من لا يملك الحياة...

٩- الحياة هي صورة البقاء الطويل الأجل في النبات و الحيوان و الإنسان. وهي عكس الموت...

١٠- الحياة انعكاسٌ لصيغةٍ كيميائيةٍ عند علماء الكيمياء الحيوية...

١١- الحياة عملية تطورٍ طويلٍ مرّت بالمادة عند علماء التطور...

التعريف الحديث للحياة: وإنَّ أحدث تعريف للحياة: الحياة نظام كيميائي حيوي (بدن أو جسم أو جهاز) ذاتي الإدارة (أوتونومي) مفتوح التطور بالنمو والتحول. وهو كاللغة التي هي نظام كيميائي حيوي محفور في العقل بوساطة جينات، قادرة على الإدارة الذاتية (أوتونومي) المفتوحة على التطور والتقدم إلى الأمام عبر مجموعات متكررة من التفاعلات والروابط الداخلية التي تمثل

الفصيح والأصيل من الكلام والتفاعلات الخارجية التي تمثل الكلام الدارج والعامي والمقترض من اللغات المتعاملة معها.

وسنعالج المناهج العلمية لدراسة العلوم الحيوية (البيولوجية) والعلوم اللغوية في محاضرات تالية إن شاء الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

دمشق في ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٩